



سُورَةُ الشَّمْسِ

حِينَ يُشْرِقُ الْكَوْنُ فِي ضَمِيرِ الْإِنْسَانِ



تأليف: رَدَادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الشَّمْسِ

حِينَ يُشْرِقُ الْكَوْنُ فِي ضَمِيرِ الْإِنْسَانِ

رحلةٌ في هندسة النفس، ومعنى التزكية، ومصير الدين دفنوا نورهم

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

المقدمة المنهجية

السورة التي تنقل القَسَمَ من أفق السماء إلى أعماق النفس

ليست سورة الشمس خمس عشرة آية قصيرة تُثلى في لحظات، بل هي كَوْنٌ كاملٌ قد طُوي في صفحة، ومحكمةٌ أخلاقيةٌ كبرى أقام الله شواهدا في السماء والأرض والنفس والتاريخ؛ حتى لا يستطيع الإنسان أن يقول يوماً إن طريق الخير كان غامضاً، أو إن الشر تسلل إليه من بابٍ لم يكن يراه، أو إن هلاكه وقع بعيداً عن إرادته واختياره. إنها سورة تبدأ بالشمس حين تفيض بالضياء، ثم تمضي بالقمر والنهار والليل والسماء والأرض، قبل أن تصل إلى النفس البشرية فتضعها في مركز هذا المشهد الكوني الهائل؛ كأن كل تلك الأجرام والآفاق والحركات لم تُستدعَ إلا لتشهد على القضية التي من أجلها خلق الإنسان: هل يزيك نفسه حتى تستجيب لنور الوحي كما يستجيب النهار للشمس، أم يدسها تحت ركام الشهوة والكبرياء حتى يصير الليل الذي في داخله أشدَّ ظلمةً من كل ليل؟

والسورة، على قصرها، لا تعرض النفس باعتبارها سرّاً غامضاً لا سبيل إلى فهمه، ولا تجعل الإنسان ضحيةً مطلقةً لتركيبٍ لا يملك إزاءه شيئاً، بل تقرر أن الله سَوَّى النفس، وأودع فيها قابلية الإدراك الأخلاقي، وألمها معرفة طريق الفجور وطريق التقوى، ثم جعل الفلاح مرتبطاً بعملٍ داخليٍّ عظيم هو التزكية، وجعل الخيبة مرتبطةً بجريمةٍ خفيةٍ متدرجة هي التدسية. وبين التزكية والتدسية تجري قصة الإنسان كلها؛ فما الحضارات إلا نفوسٌ اتسعت، وما الطغيان إلا ظلمةٌ بدأت في ضمير فردٍ ثم وجدت قوةً وسلاحاً وجماعةً تطيعها، وما الهلاك العام إلا خطيئةٌ داخليةٌ نضجت حتى أصبحت

نظاماً اجتماعياً يتواطأ فيه الناس على قتل الحقيقة، ثم يظنون أن كثرتهم ستحميهم من عاقبة الله.

ولهذا لا تأتي قصة ثمود في ختام السورة بوصفها خبراً منفصلاً عن آيات القسم، وإنما تأتي برهاناً تاريخياً على الحقيقة النفسية التي قررتها الآيات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**. فثمود لم تبدأ جريمتها يوم امتدت اليد إلى الناقة ففقرتها؛ لقد بدأت الجريمة قبل ذلك بكثير، يوم دس صوت التقوى تحت كبرياء الجماعة، ويوم صار التكبذب هوية عامة لا زلة عابرة، ويوم خرج أشقى القوم ليجسد في فعل واحد ما تراكم في ضمائر كثيرة. كان العاقر يداً، لكن الأمة كانت إرادةً وصمتاً وقبولاً؛ ولذلك نُسب العقر إليهم جميعاً، وجاء العقاب عاماً؛ لأن الجريمة التي ينفذها فردٌ بتفويض المجتمع ليست جريمة الفرد وحده، بل صورةٌ مركزةٌ من فساد الأمة كلها.

وسنسير في هذه الرحلة من الخارج إلى الداخل، ومن الآفاق إلى الأنفس، ومن ضوء الشمس المحسوس إلى نور التقوى المودع في الفطرة، ثم من قانون التزكية إلى مأساة ثمود، مع الالتزام بحدود الدلالة القرآنية وسياق السورة ونظمها، والتمييز بين ما تقرره الآيات تقريراً، وما تفتحه من آفاق التأمل والاعتبار. فلن نحمل الألفاظ ما لا تحمل، ولن نحول القسم القرآني إلى رموزٍ سائبةٍ تتفصل عن ظاهر النص، وإنما سننطلق من المعنى اللغوي والسياق البياني إلى ما يوقظه ذلك المعنى في القلب والعقل، لأن التدبير الحق ليس استبدالاً للتفسير، بل إصغاءً عميقاً إلى ما يكشفه التفسير من هداية، وانتقالاً من معرفة معنى الآية إلى الوقوف في موضع السؤال الذي تضعنا الآية أمامه.

وسيكون بناء الكتاب قائماً على فصولٍ تتبع الحركة الداخلية للسورة: فصلٌ في مشهد القسم الكوني واتساق النور والستر، وفصلٌ في تسوية النفس وإلهامها، وفصلٌ في التزكية

والتدسية بوصفهما صراع العمر، وفصلٌ في ثمود حين تحولت خيبة النفس إلى طغيان جماعي، ثم فصلٌ أخيرٌ في الدمة التي أغلقت التاريخ على عدلٍ لا يخاف عاقبة حكمه. وسنحاول في كل فصل أن نرى كيف تنتظم الآيات في وحدةٍ واحدة؛ فلا الشمس بعيدةٌ عن النفس، ولا النفس بعيدةٌ عن الناقة، ولا الناقة بعيدةٌ عن المصير، بل كل صورةٍ تمهد لما بعدها، حتى يتضح أن السورة كلها تقول للإنسان: إن الكون من حولك قائمٌ على ميزان، فلا تكن أنت الكائن الوحيد الذي يختار اختلاله.

إن سورة الشمس لا تمنح قارئها ترف التأمل البارد؛ فهي تضعه منذ مطلعها بين نورين وظلمتين: نورٍ يملأ النهار ونورٍ أودعه الله في الضمير، وظلمةٍ تغطي الشمس وظلمةٍ قد تفسد النفس. والليل الكوني لا ذنب له؛ لأنه يؤدي وظيفته في طاعةٍ كاملة، أما ليل النفس فهو المأساة؛ لأنه ينشأ حين يملك الإنسان أن يصون النور ثم يختار أن يدفنه. ومن هنا كانت هذه السورة رحلةً في أخطر أمانةٍ يحملها المرء: ألا يسمح لما خلقه الله مستقيماً أن يخدر، ولا لما ألهمه الله تقواه أن يُخرس، ولا لما جعله الله موضع فلاحه أن يصير مستودع خيبته.

الفصل الأول

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا: حين يستدعي الله الكون شاهداً على الحقيقة

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿

تبدأ السورة بقسم يوقظ الحواس قبل أن يوقظ الضمير: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾؛ وكأن الإنسان الذي طال مكثه في عتمة المألوف يحتاج أولاً إلى أن يُعاد تقديم الشمس إليه، لا بوصفها جرماً يراه كل صباح ثم يمضي، بل آية كبرى تستحق أن يقسم الخالق بها تنبيهاً إلى عظمة مدلولها. فما أكثر ما تعبر النعم أمام أعيننا حتى تفقد قدرتها على الإدهاش، وما أكثر ما نعيش داخل المعجزة حتى نسميها عادةً؛ لكن القرآن ينتشل الأشياء من بلادة الألفة، ويعيدها إلى وهجها الأول، فتغدو الشمس التي نظن أننا نعرفها سؤالاً جديداً عن القوة التي أشعلتها، والحكمة التي ضبطت مسارها، والرحمة التي جعلت ضياءها حياة لا حريقاً، والميزان الذي أبقاها في موضعها فلم تقترب فتفني ولم تتبعد فتجمد.

والضحى ليس مجرد وقتٍ من أوقات النهار، بل هو انبساط ضوء الشمس وظهور سلطانها؛ اللحظة التي يكتمل فيها الإعلان الكوني عن النور، وتتحسر أمامه ظلال الأشياء، ويصير المستور قابلاً للرؤية. وحين يقسم الله بالشمس وضحاها، فإن القسم يفتح في الوعي معنى الظهور بعد الخفاء، والانكشاف بعد الالتباس؛ وهو المعنى الذي سيمضي مع السورة حتى يصل إلى النفس، حيث لا يكون السؤال: هل أودع الله فيها ما يميز

التقوى من الفجور؟ بل: ماذا فعل الإنسان بذلك النور؟ هل أفسح له حتى أضاء ضحى النفس، أم غطاه حتى أصبح الضمير قبواً لا تدخله الشمس؟

ولا يجوز أن نحول الشمس هنا إلى مجرد رمزٍ نفسي فنفقد حقيقتها الكونية؛ فهي آيةٌ في ذاتها، ولكن الآية الكونية حين تقع في مطلع خطابٍ عن النفس تجعل بين النظامين صلةً اعتباراً: فكما أن الضوء في الخارج يكشف هيئة الأشياء، فإن نور الوحي والفترة في الداخل يكشف حقيقة الأفعال؛ وكما أن العين لا تخلق الألوان وإنما تراها بضوء الشمس، فإن الضمير لا يخلق الخير والشر من أهوائه، وإنما يبصرهما بما أفاض الله عليه من هدايةٍ وتعريف. ولهذا كان أخطر ما يصيب الإنسان ليس أن يجهل الطريق فحسب، بل أن يعتاد العتمة حتى يتأذى من الضوء، وأن يبلغ به مرض القلب حدًّا يرى معه التذكير تهديداً، والنصيحة إدانةً، والحقيقة عدواً يجب إسكاتها.

ثم يأتي القسم الثاني: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا﴾. يتلو القمر الشمس في سيره وظهوره، ويستمد نوره الذي تراه الأبصار بإذن الله من ضيائها؛ فلا يقدم نفسه أصلاً للنور، ولا ينازع الشمس مقامها، وإنما يؤدي دوره في نظامٍ لا يعرف الغرور. وهنا يطل معنى بالغ الدقة: أن الجمال لا يشترط الاستقلال، وأن التابع للحق لا تنقصه تبعيته إذا كان يتلو النور، بل قد تكون عظمته في صفاء استقباله وأمانة عكسه. وكما أفسدت الأنا قلوباً لم تحتمل أن تكون ناقلةً للحق، فأرادت أن تكون مصدره؛ ولم ترض أن تتلقى فادعت الابتداع، ولم تقبل أن تتلو النور فاخترت أن تشع ظلامها الخاص، حتى صار حرصها على التميز باباً إلى الضلال.

إن القمر لا يخجل من أن يكون نوره معكوساً؛ لأنه لا يعيش هاجس الصورة الذي يفتك بالإنسان، ولا يسأل: هل سيسجل التاريخ أن الضوء ضوئي؟ بل يسبح في فلكه مطيعاً، ويملأ الليل جمالاً بما وصل إليه من الشمس. أما الإنسان فقد يُعطى كلمة حق

فيحب أن تُنسب إليه أكثر مما يجب أن تنفع الناس، وقد يحمل قبساً من علم ثم ينسى صاحبه الأول، وقد يتحدث عن الهداية حتى يصير حضوره في خطابه أكبر من حضور الهدى نفسه. والقمر، في صمته المضيء، يربي النفس على أدب التلقي: خذ نورك من مصدره، ولا تزعم ملكية ما كان فضلاً، ولا تحتقر مقامك إذا جعلك الله سبباً لوصول الضوء إلى ليل الآخرين.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّاهَا﴾. والنهار يجلي الشمس أو يجلي الدنيا بضوئها على اختلاف ما يحتمله التعبير، وفي الحالتين نحن أمام فعل الكشف والإبانة؛ فالنهار ليس فراغاً زمنياً بين شروقٍ وغروب، بل مسرح ظهور الأشياء، حيث تتحدد الطرق، وتبين الوجوه، وتخرج الحياة من سكونها. وكأن السورة تبني طبقات النور: شمسٌ تحمل الضياء، وضئى ينبسط فيه، وقرئ يتلو مصدره، ونهارٌ يجلي المشهد كله؛ حتى يتهيأ القلب لفهم أن الهداية ليست إشارة خافتة ألقاها الله في النفس ثم تركها تضيع في الفوضى، بل أقام لها في الكون ما يشبهها من الوضوح، وأقام في الوحي ما يحلوها، وأرسل الرسل حتى لا يبقى للإنسان عذرٌ يتكى عليه وهو يختار طريقه.

غير أن التجلي لا يجبر الناظر على البصر؛ فقد تكون الشمس في كبد السماء ويغلق المرء عينيه، وقد يكون الحق في تمام ظهوره وقيم الهوى بينه وبين القلب ألف ستار. ليست كل عتمة غيابة للنور؛ بعض العتمة قرارٌ تتخذه العين حين تخشى ما سيكشفه الضوء. ولذلك كان المفسدون عبر التاريخ لا يكتفون برفض الحقيقة، بل يحاولون حجها عن الآخرين؛ لأن ظهورها يفضح البناء الذي أقاموه على الكذب. إن الطغيان لا يخاف السلاح وحده، بل يخاف النهار؛ يخاف الاسم الصحيح للأشياء، ويخاف السؤال الذي يبدد الأفتعة، ويخاف أن يرى الناس ما اعتادوا المرور به دون أن يروه.

ثم يقابل النهار الليلُ في مشهدٍ تتغير فيه حركة الصورة: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾. يغشى الليل الشمس أو يغشى الآفاق، فيستر الضوء عن الأبصار، لكن غياب ظهوره لا يعني انطفاءه؛ فالشمس لا تموت كل مساء، وإنما يحتجب نورها عن موضع ليظهر في موضع آخر. وهذه من حقائق الإيمان التي يحتاجها القلب في أزمته الاستضعاف: ليس كل احتجابٍ زوالاً، ولا كل ليلٍ انتصاراً للظلمة، ولا كل غيابٍ للحقيقة موتاً لها. قد تنسحب الشمس من أفقك، لكن ذلك لا يطفئها؛ وقد يُحاصر الحق في بلد، لكنه لا يفقد حقيقته؛ وقد يُدفن صوت الصادق تحت ضجيج المكذبين، غير أن الضجيج لا يغير موازين الله، كما أن صخب الليل لا يقدر أن يمنع الفجر.

والليل في نظام الكون رحمةٌ مثلها النهار رحمة؛ فهو لباسٌ وسكن، وفضاءٌ للهدوء واسترداد القوى، وليس خصماً للشمس ولا تمرداً على الضوء. وهذه الدقة تمنع التأمل من السقوط في مساواةٍ ساذجة بين الليل والشر؛ فالليل مخلوقٌ مطيع يؤدي وظيفته، أما الظلمة الأخلاقية فهي اختيارٌ بشريٌّ يعاكس الوظيفة التي خُلق الإنسان لها. الكون يتعاقب فيه النور والستر دون أن يختل الميزان، أما النفس فقد تحول الستر إلى دفن، والراحة إلى غفلة، والخفاء إلى بيئةٍ تتكاثر فيها الشهوات بعيداً عن رقابة الضمير. ولهذا لا يذم الخفاء لذاته؛ ففي الخفاء إخلاص العابد ودمعة التائب وصدقة لا تعلم بها الشمال ما أنفقت اليمين، كما أن فيه مؤامرة المفسد وخيانة من يظن أن الظلام يعفيه من عين الله. القيمة ليست في أن تكون في الليل أو النهار، بل في الحقيقة التي تحملها حين تكون بعيداً عن أعين الناس.

وبهذا التعاقب بين التجلي والغشيان، تعلمنا السورة أن الحياة لا تثبت على حال؛ ففيها وضوحٌ وحيرة، وانبساطٌ وانقباض، وحضورٌ وغياب، ولكن المعيار الذي يحفظ الإنسان ليس دوام الضوء من حوله، بل بقاء البوصلة في داخله. قد يكون المرء في نهارٍ

خارجي وقلبه ليلٌ كثيف، وقد يحيط به ليل الابتلاء بينما في صدره شمسٌ لا تغيب. وما أشد خديعة المظاهر حين تربط الهداية باتساع الدنيا، أو نظن أن انحسارها عن الإنسان دليل انحسار عناية الله؛ فقد تضيق الأرض على عبدٍ وتكون نفسه أوسع من السماء، وقد تنسع الممالك لطاغيةٍ وليس في داخله موضعٌ يتسع لذرة نور.

ثم يرتفع القسم من الأجرام والأزمنة إلى البنيان الكوني نفسه: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾. وفي التعبير جلالٌ يأخذ القلب من المشهد المرئي إلى فعل البناء؛ فالسما لا يست سقفاً مبهماً ممتداً فوق الإنسان، بل بناءً محكمٌ يشهد بقدرته بانيه وحكمته. ولفظ ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ يتوجه بالقلب إلى الله الذي أقامها وسواها، وجاء بـ«ما» على وجه يفيد التفعيم والتعظيم؛ فكأن فعل البناء من العظمة بحيث تُستثار النفس للسؤال عنه، ثم لا تجد وراء إحكامه إلا القدرة التي لا يعجزها شيء.

وذكر البناء بعد النور والستر يقرر أن الجمال الذي نراه ليس فوضى متألقة، بل نظامٌ بالغ الإحكام. الشمس في موضعها، والقمر في تلوه، والنهار في تجليته، والليل في تغشيته، والسماء فوق ذلك كله مبنيةٌ لا تتداعى، وكل عنصر يعرف حده ووظيفته. وحده الإنسان قد يحاول أن يعيش بلا حد، ويطلب حقاً بلا تكليف، وقوةً بلا مسؤولية، وحريةً بلا ميزان؛ ثم يسمي الفوضى تحرراً، مع أن الكون الذي يحتضنه لم يبق لحظةً واحدةً إلا بانضباطه. ليست الحرية في أن يخرج الكائن من نظام وجوده، بل في أن يختار بوعي الانسجام مع الحق الذي خلق له؛ فالشمس لا تتأخر بدعوى الاستقلال، والقمر لا يرفض مداره طلباً لتحقيق الذات، والسماء لا تتخلى عن بنائها رغبةً في الانفلات، وإنما يكتمل جمال كل شيء حين يؤدي أمانته.

ومن السماء تهبط الآيات إلى الأرض: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا﴾، أي بسطها ومهداها وهياها لما أراد الله أن يجري عليها من حياة. وما بين بناء السماء وطحو الأرض يقف

الإنسان في المسافة المهيأة لامتحانه: فوقه سقْفٌ محكم، وتحتَه قرارٌ ممهد، وحوله آياتٌ لا تنتهي؛ فلا يعيش في كونٍ عبثيٍّ ولا فوق أرضٍ بلا غاية. لقد بسطت الأرض لتسير عليها الأقدام، لكن السؤال الأعظم ليس إلى أين تمضي الأجساد، بل إلى أين تمضي النفوس؛ فقد يجوب الإنسان القارات كلها ولا يقطع خطوةً واحدةً نحو الحقيقة، وقد يبقى في مكانه وتهاجر روحه من الغفلة إلى اليقظة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن أسر الشهوة إلى حرية العبودية لله.

وطحو الأرض نعمةً لا يشعر بها من اعتاد الثبات؛ فالإنسان يخطط ويبنى ويمشي وينام كأن الاستقرار حقٌّ ذاتيٌّ للأرض، وينسى أن كل خطوة آمنةٌ عطيةٌ متجددة. وهذه الغفلة عن الأساس هي شبيهٌ بما يقع في الأخلاق: يظن المرء أن سلامة فطرته أمرٌ مضمون، وأن بقاء قلبه حيًّا لا يحتاج مجاهدة، وأن ما فيه من حياءٍ ورحمةٍ وصدقٍ سيظل ثابتًا ولو أهمله؛ لكنه لا يلبث أن يكشف أن النفس التي لا تُزَكَّى لا تبقى في موضعها، بل تهبط تحت ركام ما تكرر عليه. فكما هيأ الله الأرض للحياة، هيأ النفس للهداية، غير أن الإنسان مكلفٌ أن يعمر الأرض بالحق وأن يعمر النفس بالتقوى؛ وإلا تحولت الأرض الممهدة إلى مسرح طغيان، وتحولت النفس المسوأة إلى مستودع فجور.

بهذه الأقسام الستة الأولى تصنع السورة حول الإنسان دائرةً من الشهود: الشمس فوقه، والقمر يتلوها، والنهار يكشف، والليل يستر، والسماء مبنية، والأرض مبسوطة. وليس في هذا الجمع تزيينٌ لفظيٌّ أو تراكمٌ للمشاهد، بل إعدادٌ مهيبٌ للحقيقة التي ستأتي؛ فالقضية المقبلة من العظمة بحيث استدعي الكون كله ليشهد عليها. وحين يقسم الله بهذه الآيات، فإن القلب يدرك أن الحديث عن النفس ليس هامشاً في الوجود، وأن تركيتها ليست شأنًا خاصًا صغيراً يمكن تأجيله إلى فراغ العمر؛ إنها القضية التي يلتقي

عندها نظام الكون بمصير الإنسان، ويصبح ضياعها تناقضاً فادحاً: كَوْنٌ كاملٌ يطيع ميزانه، وإنسانٌ صغيرٌ يتكبر على ميزان ربه.

وسوف تبلغ الأقسام ذروتها في الآية التالية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾؛ فبعد الشمس والسماء والأرض، يأتي هذا العالم العجيب الذي يحمله كل إنسان في داخله. هناك ستنتقل السورة من هندسة الآفاق إلى هندسة الضمير، ومن الضوء الذي تراه العين إلى البصيرة التي تعرف بها النفس فجورها وتقواها، ومن انتظام الكون الذي لا اختيار له إلى امتحان الإنسان الذي مُنح قدرة الاختيار؛ لتبدأ المعركة التي لا يراها الناس، لكنها تصنع كل ما يروونه من صلاح وفساد.

الفصل الثاني

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا: الكائن الذي يحمل ميدان المعركة في داخله

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَالْهَمَهَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿

بعد أن طافت بنا السورة في آفاق الكون، وأوقفتنا أمام الشمس وضحاها، والقمر حين يتلوها، والنهار حين يجليها، والليل حين يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها؛ تعود بنا فجأةً إلى أقرب الأشياء إلينا وأشدّها خفاءً عنا: النفس. وكأن تلك الرحلة الهائلة في الخارج لم تكن إلا تمهيداً للدخول إلى الداخل، وإن استدعاء الشمس والقمر والسماء والأرض لم يكن ليصرف الإنسان عن ذاته، بل ليقوده إليها؛ لأن الذي أبدع اتساق الأفلاك هو الذي سوى هذه النفس، والذي جعل للشمس ضحاها ولليل غشيانه هو الذي جعل للإنسان بصيرةً يعرف بها نور التقوى وعمّة الفجور.

يصل السياق إلى قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾، فإذا النفس آيةٌ تقف في سلسلة القسم إلى جوار الشمس والسماء والأرض؛ لا لأن حجمها المادي يضارع تلك العوالم، بل لأن سرها أعجب، وامتحانها أخطر، ومصيرها أبقي. قد ينظر الإنسان إلى السماء فيدهشه اتساعها، لكنه لو أبصر نفسه حقاً لراى فيها عالماً لا يقل إدهاشاً: ذاكرةٌ تحمل ما مضى، وخيالاً يعبر ما لم يقع، وعقلاً يوازن بين البدائل، وقلباً يحب ويكره، وإرادةٌ تتردد ثم تعزم، وضميراً يتألم من خطيئةٍ قد لا يعلم بها أحد، وروحاً يضيق بها العالم كله حين تبتعد عن الله، ثم تسكن بآيةٍ واحدة حين تعود إليه.

إن النفس ليست شيئاً هامشياً يسكن الجسد كما يسكن العابر منزلاً مؤقتاً، بل هي موضع التكليف، وميدان الاختيار، ومحل التزكية أو التدسية، ومنها تصدر النيات التي تعطي الأعمال قيمتها، وفيها تبدأ التحولات التي لا يراها الناس حتى تظهر بعد زمنٍ في صورة موقفٍ أو كلمةٍ أو بطولةٍ أو جريمة. وما الفعل الخارجي في أكثر أحواله إلا آخر السطر الذي بدأ طويلاً في الداخل؛ فاليد لا تسرق قبل أن تجد في النفس تأويلاً يخفف قبح السرقة، واللسان لا يكذب قبل أن يسمح الضمير للكذبة بأن تمر، والطاغية لا يستيقظ ذات صباح فيتحول فجأةً إلى طاغية، وإنما يتكون طغيانه من انتصاراتٍ صغيرةٍ حققتها شهوته على ضميره، ومن تنازلاتٍ داخليةٍ متتابعةٍ ظنها عابرةً حتى صارت طبيعةً تحكمه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا سَوَاهَا﴾ يردّ النفس إلى فعل خالقها؛ فليست هي التي منحت نفسها وجودها، ولا هي التي ركبت قواها، ولا هي التي أقامت ذلك التوازن الدقيق بين حاجات الجسد وأشواق الروح، وبين العقل والعاطفة، وبين الخوف والرجاء، وبين القدرة على النزول والقدرة على الصعود. إن الله هو الذي سَوَّاهَا، أي خلقها وأحكمها وعدل قواها وهيأها لما كلفها به؛ فلا يكون التكليف ظلماً لها، ولا تكون الاستقامة عدواناً على طبيعتها، بل هي عودةٌ إلى مقتضى التسوية التي أرادها الله.

والتسوية لا تعني أن النفس صارت معصومةً من الميل أو مغلقةً دون الشهوة، فإنها لو كانت كذلك لما وقع الابتلاء، ولم يكن للتزكية معنى؛ وإنما تعني أنها خلقت مهيأةً لتحمل الأمانة، مزودةً بالقوى التي تستطيع بها أن تعرف وتختار وتجاهد. فيها دوافع تجذبها إلى العاجل، وفيها بصيرةٌ تريها العاقبة، وفيها قابليةٌ لأن تسمو حتى تصير الشهوة في يدها لا هي في يد الشهوة، وقابليةٌ لأن تنحدر حتى تستخدم العقل نفسه خادماً للرغبة ومهندساً للاعتذار.

وما أعمق الفرق بين عقلٍ يقود الهوى وعقلٍ يقوده الهوى؛ فالأول يبحث عن الحق ليخضع له، والثاني يبحث عن الحجة ليستر بها ما قرره سلفاً. وربما كان الإنسان شديد الذكاء، واسع الثقافة، بليغ العبارة، لكنه لم يزل نفسه؛ فيتحول ذكاؤه إلى آلة دقيقة لصناعة الأعذار، وثقافته إلى مخزنٍ ينتقي منه ما يوافق شهوته، وبلاغته إلى ستارٍ جميل يخفي وراءه قبح المقصد. إن المعرفة وحدها لا تنقذ النفس إذا لم تصحبها إرادة أخلاقية؛ فقد يعرف المرء الشر ويأتميه، ويرى الهاوية ويمضي إليها، لا لأن الطريق التبس عليه، بل لأن في داخله ميلاً غلب ما عرفه من الحق.

ولهذا جاءت التسوية قبل الإلهام؛ لأن النفس بعد أن هُيئت لحمل المسؤولية عُرِفَتْ طريقها: ﴿فَالْهَمَهَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

والفاء تصل الإلهام بالتسوية، فتدل على أن تعريف النفس بطريقها جزءٌ من أحكام خلقها، وأن الله لم يخلق الإنسان ثم يلقيه في صحراء الأخلاق بلا دليل، ولم يتركه أمام الخير والشر وهو لا يعرف الفرق بينهما، بل أراه السبيل، وأقام في فطرته أصل التمييز، ثم زاده بياناً بالوحي، وجةً بالرسول، وتذكيراً بالآيات، وتجربةً بالعواقب. فليس نور الفطرة بديلاً عن الوحي، ولا يغني الإلهام العام عن هداية النبوة؛ لأن الفطرة قد تُطمس، والعقل قد يضل، والأهواء قد تقلب الأسماء، فتسمي الفجور حريةً، والجبن حكمةً، والبخل تديراً، والنفاق مرونةً، والكبر كرامةً، والظلم ضرورةً. وهنا يأتي الوحي ميزاناً يحرس البصيرة من خداع الهوى، ويعيد للأشياء أسماءها التي غيرتها المصالح.

والإلهام في الآية تعريفٌ وإبانةٌ وتمكينٌ من إدراك الطريقين، لا إكراهٌ على الفجور ولا تسويعٌ له؛ فالله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يحب الفساد، وإنما أبان للنفس ما نتقي وما تأتي، وجعلها مدركةً في الجملة لقبح الانحراف وحسن الاستقامة. ولو كان الإلهام إجباراً على الفجور لما استقام بعده مدح المزيكي وذم المدسي، ولما كان للفلاح والخيبة

معناها الأخلاقي؛ فإنما يُمدح الإنسان حين يستجيب للهدى مع قدرته على المخالفة، ويُذم حين يدفن بصيرته وهو يعلم أن وراء الركام نوراً.

ويشير ترتيب الكلمتين سؤالاً تأملياً: لماذا قُدِّمَ الفجور على التقوى في قوله: ﴿فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾؟ ولعل في السياق إظهاراً للطريقين على ما هما عليه قبل أن يأتي الحكم الفاصل، كما أن الفجور مأخوذٌ من معنى الشق والتفجير؛ فهو خروجٌ عن الحد الذي يحفظ النفس، وانفلاتٌ يشق سياجها الأخلاقي، بينما التقوى حفظٌ ووقايةٌ وإقامةٌ للحاجز بين النفس وما يهلكها. الفجور اندفاعٌ يهدم، والتقوى وعيٌ يحرس؛ الفجور يريد اللذة الآن ولو انهار المستقبل، والتقوى ترى العاقبة وهي تتعامل مع اللحظة؛ الفجور يهمس للإنسان أن القيود كلها عدو، والتقوى تعلمه أن بعض القيود أسوار نجاة، وأن النهر لا يصل إلى غايته إلا لأن ضفتين تحفظان مجراه.

التقوى ليست خوفاً جامداً يطارد الإنسان فيغلق عليه أبواب الحياة، بل يقطعةً تضع الله حاضراً في الوعي، فتمنع النفس من أن تنصرف كأنها منفصلةٌ عن الحساب. إنها حساسية القلب تجاه مواضع السخط، وقدرته على استشعار الخطر الأخلاقي قبل أن يتحول إلى كارثة. فكما يسحب الإنسان يده من النار قبل أن تحرقها، تسحب التقوى القلب من الخطيئة حين يرى لهيب عاقبتها خلف زينتها. وحين تضعف التقوى لا تختفي المعرفة بالضرورة، ولكن المسافة تتسع بين ما يعرفه الإنسان وما يفعله؛ حتى يصبح مقتنعاً بالحق نظرياً، ومع ذلك يعيش في الاتجاه المضاد له.

وفي داخل كل إنسان أثرٌ من هذا التعريف؛ تلك الرجفة التي تسبق الخطيئة، وذلك الصوت الذي يقول له إن الأمر ليس مستقيماً، وذلك الحرج الذي يشعر به وهو يبحث عن عينٍ لا تراه، وتلك السرعة في صناعة التبرير بعد الفعل؛ كلها شواهد على أن النفس لا تدخل الفجور دائماً ببراءة الجهل، بل كثيراً ما تدخله بعد مقاومةٍ قصيرةٍ مع النور.

وحين ينتصر الهوى للمرة الأولى يتألم الضمير، فإذا تكررت الهزيمة خف الألم، وإذا استمر التكرار صار المنكر مألوفاً، ثم يتحول المألوف إلى حق مكتسب، ثم يغضب صاحبه ممن يذكره بأنه منكر. وهكذا لا تموت البصيرة دفعةً واحدة؛ إنها تُخنق بالتقسيط.

إن أخطر ما يصيب الإنسان أن يظن أن الشعور بالذنب هو المرض، فيحاول معالجة الألم بإسكات الضمير بدل معالجة سببه بالتوبة. والضمير حين يؤلمه ليس خصماً له، بل هو آخر الحراس الواقفين عند بوابة النفس؛ فإذا أطلق عليه سهام التبرير حتى أسكته، لم يحرر نفسه كما يظن، وإنما فتحها بلا مقاومة لكل غاز. وما الندم الصادق إلا بقايا نورٍ تحاول إنقاذ القلب؛ ولذلك كانت التوبة عودةً إلى الحياة، وكان الاستغفار رفضاً لأن تصبح الخطيئة تعريفاً نهائياً للإنسان.

غير أن معرفة الفجور والتقوى لا تكفي وحدها؛ فالسورة لا تتوقف عند البيان، بل تنتقل إلى العمل الذي يتقرر به المصير: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

الفصل الثالث

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا: فلاحه الروح وصناعة الإنسان من الداخل

تأتي ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، ويأتي الفعل الماضي ﴿أَفْلَحَ﴾ كأن النتيجة قد وقعت واستقرت ولم يعد فيها موضعٌ للشك: لقد فاز ونجا وأدرك مطلوبه من زكّى نفسه. وليس هذا احتمالاً من احتمالات النجاح، ولا نصيحةً تجميليةً يمكن أن يستغني عنها من امتلك المال والسلطان؛ بل هو قانون الفلاح كما يقرره خالق النفس والعالم بمصيرها. قد يسمي الناس أشياء كثيرةً نجاحاً: شهرةٌ تسع، وثروةٌ تتضاعف، ونفوذاً تخني له الرؤوس، وقدرةٌ على الوصول إلى ما يشتهي المرء؛ لكن القرآن يسحب كلمة الفلاح من مقاييس السوق والبلاط والجمهور، ويضعها في موضعٍ لا تلتقطه الكاميرات ولا تسجله القوائم: في نفسٍ نجحت في أن تكون نقيةً وهي تعبر عالماً مزدحماً بالأحوال.

ولفظ الفلاح يحمل في أصله ظلال الشق والحرق؛ فالفلاح يشق الأرض، ويقلب تربتها، ويلقي البذرة، ثم يصبر على ما بين الزرع والحصاد. وكأن تركية النفس فلاحاً داخلية، لا تتحقق بالتمني ولا بالانهار العابر بموعظة، بل تحتاج أن يشق الإنسان أرض عاداته الصلبة، وأن يقتلع جذوراً امتدت طويلاً، وأن يغرس في مواضعها بذور الإيمان، ثم يسقيها بالمجاهدة والذكر والعمل الصالح، ويحرسها من آفات الرياء والعجب والفتور. ولا يحق للفلاح أن يدفن البذرة صباحاً ثم ينبش التراب مساءً متهمّاً الأرض بالعدم؛ فالتحول الأخلاقي يحتاج صبراً، والنفس لا تتخلص في لحظةٍ من طبقاتٍ بنتها أعوام.

والتركية تجمع معنيين متلازمين: التطهير والنماء. فليست تركية النفس مجرد إزالة الرذائل حتى تصبح فراغاً بارداً لا يخطئ ولا يصنع خيراً، وإنما هي تطهيرها مما يفسدها، وتنية ما أودع الله فيها من إيمانٍ وصدقٍ ورحمةٍ وشجاعةٍ وعفة. يتخلّى القلب عن الكبير

ليتسع للتواضع، وعن الحسد ليفرح بفضل الله على عباده، وعن الرياء ليصفو قصده، وعن الضغينة ليزوق راحة العفو، وعن الجبن ليقوم للحق. وكل رذيلة تُنتزع تفتح مكاناً لفضيلة، وكل قيد من الهوى ينكسر يطلق في النفس طاقة كانت مستنزفة في الصراع والتبرير.

وليست التزكية احتقاراً للنفس أو حرباً على إنسانية الإنسان، كما قد يتوهم من لا يرى في الحرية إلا إطلاق الرغبات؛ بل هي إنقاذ النفس من أدنى قواها حتى تقودها أعلاها. الشهوة في موضعها ليست شراً، والغضب في موضعه ليس شراً، وحب البقاء والتملك والتقدير دوافع لها وظائفها؛ لكن الخلل يبدأ حين تتقلب الوسيلة سيئاً، ويحتل الجزء عرش الكل، ويصير الإنسان تابعاً لما كان ينبغي أن يكون تحت تديره. التزكية لا تقتل الطاقة، بل تهذب اتجاهها؛ لا تطفئ الغضب، بل تحول من انتقام للذات إلى غضبٍ للحق؛ ولا تلغي حب المال، بل تنتزعه من مقام المعبود وتجعله خادماً للعمران والإحسان؛ ولا تحطم الطموح، بل تطهره من سحق الآخرين ومن عبادة التصفيق.

إن النفس لا تُزَكَّى بالكلمات التي تقولها عن نفسها؛ فادعاء الطهر قد يكون من أخطر علامات المرض. ولهذا قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾؛ فهناك فرق بين تزكية النفس بالعمل وبين تزكيته بالدعوى: الأولى مجاهدة متواضعة تخشى ألا تقبل، والثانية مديح ذاتي يستر العيوب. المزيح حقاً كلها نما رأى تقصيره أوضح؛ لأن ازدياد النور يكشف له من غبار نفسه ما لم يكن يراه، أما من يكتر إعلان نقائه فقد يكون قد خفض الضوء حتى لم تعد عيوبه ظاهرة له.

ومن مفارقات الطريق أن الإنسان قد يجاهد ذنباً ظاهراً ثم يقع في العجب بتلك المجاهدة، فيخرج من معصية الجوارح إلى معصية القلب؛ وقد يتواضع في هيئته وهو مفتون بتواضعه، أو يزهد في المال وهو يطلب ثراء المنزلة في قلوب الناس، أو ينصح

الآخرين لا رحمة بهم بل ليشعر أنه أرفع منهم. ولذلك كانت التزكية علماً دقيقاً بمدخل النفس، لا قشرة سلوكية براقية؛ وهي تحتاج مع العمل افتقاراً دائماً إلى الله، لأن النفس لا تطهر بقوتها المستقلة، بل بتوفيقه وإعانتته. ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها».

ويكشف هذا الدعاء توازناً عظيماً بين المسؤولية والافتقار: فالآية تقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، فيطلب من الإنسان أن يجاهد ويعمل، والدعاء يرد الفضل إلى الله الذي يوفق ويطهر. فلا يصح أن يحتج المرء بالقدر ليترك المجاهدة، ولا أن يعجب بعمله فينسى المنّة. نحن نطرق الباب، والله يفتحه؛ نأخذ بالأسباب، وهو يخلق ثمرتها؛ نغرس، وهو الذي يخرج الزرع. وبين عجز الاستسلام وغرور الاستقلال يقوم مقام العبودية: عملٌ كامل، وافتقارٌ كامل.

وتبدأ التزكية من الصدق؛ أن يتوقف الإنسان عن تجيل نفسه لنفسه، وأن ينظر في دوافعه دون مساحيق، وأن يعترف بأن بعض ما يسميه مبدأً قد يكون جرحاً شخصياً، وبعض ما يسميه زهداً قد يكون عجزاً، وبعض ما يسميه صراحةً قد يكون قسوةً، وبعض ما يسميه صبراً قد يكون خوفاً من المواجهة. ليست المحاسبة أن يكره المرء ذاته، بل أن يحررها من الأكاذيب التي تمنع شفاءها؛ فالجرح الذي يُنكر وجوده لا يُعالج، والخطيئة التي يغير صاحبها اسمها لا يتوب منها.

ثم تنمو التزكية بالمخالفة الواعية للهوى؛ فلا ينتظر المرء أن يحب كل تكليف قبل أن يؤديه، لأن النفس تتعلم بالطاعة كما يتعلم الجسد بالرياضة. من انتظر زوال الكسل ليقوم قد يطول نومه، ومن انتظر انشراح صدره للعفو قد يحمل الضغينة عمراً، ومن انتظر أن يسهل عليه البذل قد يموت وهو يؤجل الكرم. كثيرٌ من الفضائل يبدأ ثقيلًا ثم يصير مع التكرار خُلُقًا، وكثيرٌ من الرذائل يبدأ مستنكراً ثم يصير مع التكرار عادة. والتكرار ليس

تفصيلاً صغيراً في بناء النفس؛ إنه المعمار الصامت الذي يحول الأفعال إلى صفات، والاختيارات المتفرقة إلى شخصية.

وتحتاج التزكية إلى صحة القرآن، لا بوصفه نصاً يُستعمل لتأييد ما قررناه، بل مرآة نحلل أنفسنا إليها ليصححها. فالقرآن لا يكفي بأن يخبرنا عن السابقين، وإنما يكشف السابقين المختبئين فينا: فرعون الصغير حين نستعلي، وقارون حين ننسب الفضل إلى أنفسنا، وإخوة يوسف حين يفسد الحسد ميزاننا، وأصحاب الجنة حين يمنعنا الطمع من حق الفقير، وثمود حين نرى آية الله ثم نسمح لمصالح الجماعة أن تعقرها. والقراءة التي لا يخرج القارئ منها متهماً بعض أهوائه قد تتحول إلى وسيلة يثبت بها تفوقه على الآخرين، فيقرأ الوعيد كأنه نزل في خصومه وحدهم، ويعبر آيات المحاسبة كأنه مستثنى من خطابها.

كما تحتاج التزكية إلى عبادة تصنع أثراً لا عادةً تؤدي؛ فالصلاة التي لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر تحتاج منه أن يراجع حضور قلبه، والصيام الذي لا يحرره من الكذب والعدوان لم يبلغه بعد إلى تمام مقصوده، والصدقة التي يفسدها المن والأذى قد تنقل المال من اليد دون أن تنقل البخل من القلب. ليست العبادة حركاتٍ موازيةً للحياة، بل ورشةٌ ربانيةٌ لإعادة تشكيل الإنسان؛ الصلاة تهدم كبرياءه بالسجود، والصيام يعلمه أن يقول لرغبته «لا»، والزكاة تفك وهم الملك المطلق، والحج يخرججه من تفردهِ إلى أمةٍ تلبس لباس الفقر إلى الله.

والتزكية لا تتم في العزلة وحدها؛ لأن كثيراً من أمراض النفس لا يظهر إلا عند الاحتكاك بالناس. قد يظن المرء نفسه حليماً لأنه لم يختلف مع أحد، وكرماً لأنه لم يُطلب منه شيء، ومتواضعاً لأنه لم ينافسه أحد على مقامه؛ فإذا دخل ميدان العلاقات تكشفت المعادن. الناس مرايا مؤلة أحياناً، وبهم تُختبر دعاوى الأخلاق: هل نعدل مع

من نكره؟ هل نعترف بفضل منافسنا؟ هل نرد الحق لمن أساء إلينا؟ هل نستطيع أن نرى الخطأ في جماعتنا والصواب عند خصمها؟ هناك تنتقل التقوى من فكرة جميلة إلى كلفة حقيقية.

وأشد ميادين التزكية خفاءً: الموقف من المدح والذم. فكم من إنسان ظن أنه يعمل لله، فلما لم يشكر انطفأ، ولما نُسب إنجازُه إلى غيره غضب، ولما تأخر اسمه عن الواجهة ترك الطريق. ليست الرغبة في التقدير عيباً في أصلها، فالإنسان يحب أن يُعرف فضله، لكن الخطر أن تصبح أنظار الناس مصدر وجوده، فيعمل إذا رآه، ويتوقف إذا غابوا، ويختار من الحق ما يزيد صورته لمعاناً. والمزكي نفسه لا يصبح حجراً لا يتأثر، وإنما يتعلم أن يجعل رضوان الله هو المركز، وأن يتلقى ثناء الناس دون أن يسكن إليه، وذمهم دون أن ينهار به، ويزن كليهما بميزان الحق.

ولا تعني التزكية بلوغ حالة لا يعود معها الإنسان إلى الضعف؛ بل قد يكون من تزكية النفس أن يعرف صاحبها هشاشتها، فيبتعد عن أبواب الفتنة، ولا يثق بثباته ثقة عمياء. يوسف عليه السلام لم ينسب العصمة إلى نفسه، بل قال: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَّ﴾؛ فالعارف بنفسه لا يختبرها في مواضع السقوط، ولا يقف عند حافة الهاوية ثم يفتخر بتوازنه. ومن التواضع الأخلاقي أن يدرك الإنسان أن بينه وبين بعض الانهيارات سترًا من الله وظرفًا لم يقع، وأن كثيراً ممن يحتقرهم ربما واجهوا من الضغوط ما لم يواجهه؛ فيحمد الله على العافية، وينصح برحمة، ويخاف على نفسه بدل أن يتغذى على أخطاء الناس.

والفلاح الذي تعد به الآية ليس فلاح الآخرة وحدها، وإن كانت الآخرة تمامه وموعد ظهوره الأكبر، فالمزكي يذوق في الدنيا صورةً من فلاحه: سلاماً مع الضمير، ووحدَةً بين ظاهره وباطنه، وحريةً من عبودية الشهوة، وقدرةً على أن ينام دون أن

يطارده وجه مظلومٍ أو خيانة عهد. وقد تضيق عليه الدنيا، ويُحرم أشياء ينالها الفاجر، ويبدو في مقاييس العاجلة خاسراً؛ لكنه يربح الشيء الذي إذا خسره الإنسان لم تعوضه الأرض كلها: يربح نفسه.

وهذا هو المعنى الذي يغفل عنه كثيرون؛ فالإنسان قد يجمع العالم ثم لا يجد نفسه بين ما جمع، وقد يبني صورةً هائلةً في أعين الناس بينما ينهار في عينه كل مساء، وقد ينتصر في خصوماته كلها ويخرج منها مهزوماً أمام حقه وكبره. الفلاح ليس أن تصل يدك إلى كل ما تريد، بل ألا تفقد روحك وهي تصل؛ وليس أن تغلب كل منافس، بل أن تغلب في نفسك ما يجعلك ظالماً؛ وليس أن يقال إنك نجحت، بل أن تلقى الله بقلبٍ لم يبع الحقيقة في الطريق.

ثم تقيم السورة في الجهة المقابلة صورة الخيبة: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. وبين «زكّاهَا» و«دسّاهَا» يتقرر مصير الإنسان؛ فإما نفسٌ أخرج صاحبها نورها وغمّاه، وإما نفسٌ حفر لها في داخله قبراً، ثم دفنها بيده وهي ما تزال حية.

الفصل الرابع

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا: حين يدفن الإنسان نفسه وهو ما يزال حياً

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

في الجهة الأخرى من الفلاح تقف الخلية، لا بوصفها حادثاً عابراً يصيب الإنسان من خارج، بل مصيراً صنعه في أعماقه حين اختار أن يدس نفسه. والخلية أوجع من الخسارة؛ لأن الخاسر قد يفقد شيئاً كان يملكه، أما الخائب فقد يمتد نحو غايته ثم يعود منها فارغاً، وقد يقضي عمره كله يصعد سلماً طويلاً، فإذا بلغ نهايته اكتشف أنه أسنده إلى الجدار الخاطئ. وكَم في العالم من ناجحين في مقاييس الناس خائبين في ميزان الحقيقة؛ وصلوا إلى المنصب وخسروا الضمير، وملكوا القدرة وفقدوا الرحمة، واتسعت أسماؤهم في الآفاق حتى ضاقت نفوسهم عن الاعتراف بخطيئة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿دَسَّاهَا﴾ من الدس، وهو إخفاء الشيء وإدخاله في غيره حتى يستتر؛ وفي اللفظة صورة تكاد تُرى: إنسانٌ يحمل نفساً سواها الله، وأودع فيها قابلية التقوى، ثم يأخذ في دفنها طبقةً بعد طبقة تحت تراب الشهوة والكذب والكبر والتبرير، حتى لا يعود صوتها مسموعاً ولا نورها ظاهراً. لم يقتلها بضربة واحدة، وإنما دسها؛ لأن الانبياء الأخلاقي الكبير لا يبدأ غالباً بقرارٍ معلنٍ أن يصير المرء شريراً، بل بتنازلٍ صغيرٍ قيل عنه إنه مؤقت، وكلمة جائرة قيل إنها ضرورة، ومالٍ مشبوه قيل إنه لن يتكرر، وموقفٍ جبانٍ قيل إن الحكمة تقتضيه، حتى يتراكم التراب فوق البصيرة ويصبح القبر عادةً يومية.

والتعبير يضع المسؤولية على الإنسان: ﴿مَنْ دَسَّاهَا﴾. لم تُدفن النفس وحدها، ولم يكن صاحبها واقفاً بريئاً يشاهد ما يحدث لها، بل شارك في الدفن؛ كان في كل مرة يرفض فيها صوت الحق يلقي حفنة تراب، وفي كل مرة يبرر ظلمه يردم منفذاً للهواء، وفي كل مرة يسخر من الناصح يضع حجراً فوق القبر. وربما ظل جسده متحرّكاً بين الناس، يضحك ويخطط ويتكلم عن النجاح، بينما أعمق شيء فيه يختنق تحت ما جمعه عليه.

إن للخطايا أثراً يتجاوز لحظة فعلها؛ فهي لا تمر بالنفس كما تمر الأقدام فوق طريق صلب، بل تترك فيها شكلها. الكذبة الأولى فعلٌ يرتجف منه القلب، ثم إذا تكررت صارت مهارةً، ثم تصبح منهجاً في إدارة الحياة، ثم ينتهي الكاذب إلى أن يصدق بعض ما اختلقه؛ لأن النفس لا تستطيع طويلاً أن تعيش منقسمةً بين صورتها عن ذاتها وحقيقة أفعالها، فتختار أحياناً أن تغير رؤيتها للحقيقة بدل أن تغير سلوكها. وهنا يبلغ الدس مرحلةً خطيرة: لا يعود الإنسان يفعل الشر مع اعترافه بأنه شر، بل يعيد بناء اللغة نفسها حتى يصبح شره فضيلةً في قاموسه.

ولكل جفورٍ معجمٌ يزينه؛ فالاستعلاء يتحول إلى ثقةٍ بالنفس، والقسوة إلى حزم، والتجسس إلى حرص، والوشاية إلى نصيحة، والتعصب إلى وفاء، والانتهازية إلى واقعية، والتنازل عن الحق إلى مرونة، والتشفي إلى عدالة. وحين تُسرق أسماء الفضائل لتغطية الرذائل يصبح الرجوع أصعب؛ لأن التوبة تحتاج أولاً إلى استعادة الاسم الصحيح للفعل. لا يستطيع الظالم أن يتوب من ظلمٍ يسميه إصلاحاً، ولا يستطيع المتكبر أن يتواضع ما دام يرى كبره حفظاً للمقام، ولا يستطيع الحاسد أن يشفى إذا ظل يصف حسده بأنه غيرةٌ على المصلحة العامة.

والشيطان لا يحتاج دائماً إلى أن يقنع الإنسان بحب الشر؛ يكفيهِ أحياناً أن يقنعه بأنه استثناء. يقول له: القاعدة صحيحة، ولكن ظروفك مختلفة؛ الصدق واجب، لكن هذه

الكذبة تحميك؛ العدل عظيم، لكن خصمك لا يستحقه؛ الحرام حرام، لكن حاجتك أشد من حاجات الآخرين؛ التواضع فضيلة، لكن الناس لن يحترموك إن لم تتعاطف عليهم. ومن هذه الاستثناءات الصغيرة يُبنى قانون النفس الجديد، حتى يغدو الهوى هو الأصل، وتصير القيم ضيوفاً لا يُسمح لها بالدخول إلا إذا وافقت المصلحة.

وقد يبلغ الدس أن يستخدم الإنسان الطاعة نفسها لتغذية مرضه؛ فيقرأ ليقال عالم، ويعطي ليقال كريم، ويكتب ليرى صورته في إعجاب القراء، وينتصر للدين لأن الانتصار يمنحه شعوراً بالتفوق على الخلق. والعمل في ظاهره صالح، لكن النفس تدسه حين تحرف وجهته من الله إلى صورتها. ولهذا كانت معركة النية من أدق معارك التزكية؛ لأن الجوارح قد تستقيم بينما يسرق القلب ثوابها، وقد يسجد الجسد وتظل الأنا واقفة في داخله تطالب بحصتها من المديح.

ولا يعني ذلك أن يخاف المرء من كل سرورٍ بعمله، أو يترك الخير خشية الرياء؛ فذلك بابٌ آخر قد يدخل منه الشيطان. وإنما المطلوب أن يراقب المقصد ويصححه، وأن يمضي في العمل مستعيناً بالله، وألا يجعل خوفه من فساد النية ذريعةً للكسل. تزكية النفس لا تقوم على الوسواس الذي يشلها، بل على بصيرةٍ تدفعها إلى العمل ثم تنقي عملها ما استطاعت، وتستغفر مما خفي عليها من عيوبه.

ومن صور التدسية أن يختصر الإنسان نفسه في خطيئته؛ فيظن أن سقوطه مرةً قد كتب عليه أن يظل ساقطاً، فيستسلم للذنب لأنه فقد الأمل في الطهارة. وهذا أيضاً دفنٌ للنفس، لكن بتراب اليأس. إن الندم بابٌ إلى التزكية إذا قاد إلى التوبة، لكنه يصير أداة هدم إذا تحول إلى قنوط. والله الذي كشف للإنسان فجوره كشف له تقواه، والذي حذره من الخيبة فتح له طريق الفلاح؛ فلا ينبغي أن يستعمل المؤمن آيات الوعيد ليغلق بها باباً فتحه الله، ولا أن يجعل ماضيه أقوى من رحمة ربه.

التوبة ليست إنكاراً لما حدث، بل رفضٌ لأن يكون ما حدث سيد المستقبل. وهي حركة إخراج للنفس من الموضع الذي دُست فيه، اعترافٌ يزيح طبقة الكذب، وندمٌ يفتت قسوة القلب، وإقلاعٌ يفتح نافذة الهواء، وردٌ للحقوق يعيد بناء العدل، وعزمٌ صادقٌ يغرس في أرض الخراب بدايةً جديدة. وربما حمل الإنسان أثر الذنب زمناً، لكن الأثر الذي يورثه تواضعاً وانكساراً وخوفاً من العودة قد يصير جسراً إلى الله، بينما طاعةٌ أورثت عجباً قد تصبح حجاباً عن الله.

والخبيّة في الآية محققةٌ كما أن الفلاح محقق: ﴿وَقَدْ خَابَ﴾. إنها ليست وعيداً اعتبارياً، بل نتيجةٌ موافقةٌ لطبيعة الفعل؛ فمن يدفن مصدر بصيرته كيف يصل؟ ومن يخنق ضميره كيف ينجو من التحول إلى ما كان يكرهه؟ ومن يهدم في داخله ميزان الحق كيف يقيم خارج نفسه عالماً عادلاً؟ إن المجتمعات لا تستورد طغيانها من فراغ، وإنما يخرج الطغيان من نفوسٍ مفسوسةٍ التقت مصالحها، ومن أفرادٍ تعلموا أن يبيعوا مواقفهم، وأن يصمتوا عن الجريمة ما دامت لا تصل إليهم.

ولهذا تنتقل السورة من قانون النفس إلى قصة أمة، ومن الخبيّة الفردية إلى الطغيان الجماعي: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾. فما سيقع في أرض ثمود ليس فصلاً تاريخياً غريباً عن تزكية النفس وتدسيّتها، بل هو النتيجة الاجتماعية لما يحدث حين تتكاثر النفوس المفسوسة، وتبادل التبريرات، وتمنح أشقائها تفويضاً لارتكاب الجريمة باسمها.

الفصل الخامس

كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا: حين يتحول فساد النفس إلى ثقافة أمة

﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ ١٠١ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٠٢﴾

تأتي ثمود في السورة دون مقدماتٍ تاريخيةٍ طويلة؛ فلا تعرض الآيات مساكنهم ولا تفاصيل قوتهم ولا الحوار الكامل الذي جرى بينهم وبين نبيهم صالح عليه السلام، لأن المقصود هنا ليس إعادة القصة بكل مشاهداتها، بل التقاط اللحظة التي تكشف قانون السورة كله: نفسٌ دُسَّت حتى طغت، وطغيانٌ نما حتى كَذَّب، وتكذيبٌ تحوّل إلى قرارٍ جماعي، ثم خرج من الجماعة أشقاها ليضع يده على آية الله.

﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾؛ لم يكن تكذيبهم ناشئاً عن نقص الأدلة وحده، ولا عن غموض الرسالة، وإنما كان للطغيان أثره في حجب الحقيقة. فالطغيان مجاوزة الحد، وحين يتضخم الذات أو الجماعة حتى لا ترى فوقها مرجعيةً ولا أمامها حساباً، يصبح الإيمان تهديداً لبنيتها؛ لأن الإيمان يقول للقوة: أنت محدودة، وللغني: المال أمانة، وللسيد: الناس ليسوا عبيدك، وللجماعة: كثرتكم لا تجعل الباطل حقاً. ولهذا لا يرفض الطاغية الوحي دائماً لأنه لم يفهمه، بل قد يرفضه لأنه فهم ما سيأخذه منه.

إن المعرفة ليست منفصلةً عن أخلاق العارف؛ فقد يكون الدليل ظاهراً، لكن النفس المتكبرة تنظر إليه من وراء مصلحتها، فتراه خطراً يجب إبعاده. ومن هنا نفهم أن التكذيب في القرآن ليس مسألةً ذهنيةً محضة، بل قد يكون ثمرةً للطغيان والحسد والاستكبار وحب العلو. إن القلب لا يقف محايداً أمام البرهان؛ إما أن يستقبله بتواضع

طالب الحق، وإما أن يحاكمه وفق ما يوافق رغباته. وإذا صار الهوى قاضياً، فلن يفوز في المحكمة إلا الدليل الذي يخدمه.

وكانت ثمود قوماً آتاهم الله من أسباب القوة والتمكين ما جعلهم يختون من الجبال بيوتاً، ويتمتعون بما في الأرض من موارد، لكن النعمة إذا لم تُزَكَّ صاحبها بالشكر قد تدفعه إلى وهم الاستغناء. القوة لا تفسد بطبيعتها، لكنها تكشف ما في النفس وتمنحه أدوات الظهور، فالرحيم إذا قوي اتسعت رحمته، والعاقل إذا تمكن أقام العدل، أما المستكبر فإذا امتلك القوة أخرج ما كان مستتراً من طغيانه. ليست المشكلة في قدرة اليد، بل في الضمير الذي يوجهها.

ولذلك كان امتحان الأمم فيما أعطيت، لا فيما حُرمت وحده. قد يظن الإنسان أن الابتلاء لا يكون إلا بالفقر والمرض والضعف، وينسى أن الصحة امتحان، والقدرة امتحان، والشهرة امتحان، والانتصار امتحان؛ بل قد تكون النعمة أشد كسفاً للباطن من المحنة، لأن المبتلى يضطر إلى الشعور بحاجته، أما المنعم عليه فقد تحدعه الأسباب حتى يتوهم أنه مكتفٍ بنفسه. وثمود لم يهلكها عجزها، بل أهلكتها ما صنعه شعورها بالقوة حين انفصل عن العبودية.

وقوله: ﴿بَطْغَوْا﴾ يرسم الطغيان كأنه القوة الدافعة وراء التكذيب؛ فما عادت الخطيئة فعلاً منفرداً، بل صارت مناخاً عاماً يحيط بالرؤية ويشوهها. والمناخ الأخلاقي للأمة أخطر من الخطايا الفردية المتفرقة؛ لأن الفرد إذا أخطأ في مجتمع يعرف المعروف ظل يشعر بانحرافه، أما إذا فسد الميزان الجمعي فقد يجد من يصفق له، ويمنحه الألقاب، ويقتنع أن جرمته بطولية. وحين تملك الخطيئة جمهوراً، وناطقين باسمها، ومفرداتٍ تزينها، تصبح مقاومة الحقيقة لها أشد كلفةً.

ثم تحدد السورة المحطة التي خرج فيها الطغيان من الحالة الكامنة إلى الفعل: ﴿إِذَا انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾. والانبعث حركة فيها اندفاعٌ بعد كمن؛ كأن الشر كان مستقرًّا في أعماق الجماعة، ثم وجد الرجل الذي يحمله إلى الخارج. لم تقل الآية: إذ وُلِدَ أَشْقَاهَا، ولا جعلت الشقاوة نسباً محتوماً لا اختيار فيه، بل وصفته بما انتهى إليه من شقاء حين تقدم لتنفيذ الجريمة. لقد انبعث من بين القوم، لكنه لم ينفصل عنهم؛ خرجت يده من جسد أمةٍ هيأت له الفعل، أو رضيت به، أو سكنت عنه.

وهنا تكشف السورة طبيعة العلاقة بين المجرم الفرد والمجتمع الذي ينتجه. ففي كل طغيانٍ يدُ تباشر، وألسنةٌ تمهد، وعقولٌ تبرر، ووجوهٌ تصمت، ومصالحٌ تنتظر نصيبها من النتيجة. وقد يظهر رجلٌ واحدٌ في مقدمة المشهد، فيُختزل الشر كله في اسمه، بينما تختبئ خلفه بنيةٌ كاملةٌ صنعتُه وشفقت له ودفعت به إلى الموضع الذي أرادته. إن أشقى ثمود لم يسقط على قومه من السماء، بل انبعث منهم؛ كان خلاصةً مكثفةً لطغيانهم، وصورةً ظاهرةً لما استقر في باطن جماعتهم.

وهذه الحقيقة تمنع الأمة من تبرئة نفسها بمجرد إدانة المنفذ. فمن صنع للمجرم هيئته، ومن زين له عدوانه، ومن خوف الناس حتى لا يعارضوه، ومن اعتذر له بعد الجريمة، ومن استفاد منها ثم ادعى البراءة؛ كل أولئك يشكلون البيئة التي انبعث منها الأشقى. وربما لم تمسك أيديهم بأداة الجريمة، لكنهم أمسكوا بالمعنى الذي حرکہا.

ولم تصفه الآية بأقواها أو أجرئها أو أكثرها نفوذاً، بل قالت: ﴿أَشْقَاهَا﴾؛ لأن المقاييس تنقلب عند الله. قد رقبه العيون وهو يتقدم قتره بطلاً تحدى التحذير، وقد يظن هو أن جرأته ستخلد اسمه في قومه، لكن الوحي يسلب المشهد زخرفه ويعطيه اسمه النهائي: الشقاء. إن القدرة على ارتكاب الجريمة ليست شجاعة، والاندفاع إلى ما يخشاه الآخرون

ليس بطولاً إذا كان الطريق يؤدي إلى غضب الله؛ فرب لحظةٍ صَفَّق لها الناس كانت في ميزان الآخرة لحظة السقوط الأبدي.

والشقي هنا ليس الذي لم يجد نصيباً من الدنيا، بل الذي بلغ به فساد النفس أن صار الأقدر على مواجهة آية الله بالعدوان. الشقاء الحقيقي أن تُتدرب النفس على إسكات إنذارها حتى تقدر على ما كانت ترتجف منه، وأن ترى حدود الله ثم تشعر بأن كسرهما إثباتٌ للذات، وأن تتحول الجراءة من اقتحامٍ للحق إلى اقتحامٍ للمحرمات. إن القلب لا يصير قاسياً فجأةً؛ إنه يمر بمراحل من التدسية حتى يستطيع صاحبه أن يرفع يده على المقدس دون أن تسقط يده من هيبة الفعل.

لكن أشقى ثمود لم يتحرك قبل أن تبلغهم الحجة، ولم يُتركوا بلا كلمةٍ أخيرةٍ تقيم عليهم البيان. لقد وقف رسول الله صالحٌ عليه السلام بينهم، وأشار إلى الآية التي امتحنوا بها، وأعلن الحد الذي لا يجوز تجاوزه:

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾.

وهنا سيدخل الصراع لحظته الفاصلة: كلمة نبيٍّ لا يملك من سلطان الأرض إلا وضوح البلاغ، في مواجهة أمةٍ يزين لها طغيانها أن القوة تستطيع إلغاء حدود الله.

الفصل السادس

نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا: الحَدُّ الذي يكشف ما تخفيه النفوس

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾

في اللحظة التي اندفع فيها أشقى ثمود، لم يكن نبي الله صالح عليه السلام غائباً عن المشهد، ولم تكن الجريمة نتيجة التباس لم يصل إليه بيان؛ بل ارتفع صوت الرسالة واضحاً عند الحد الفاصل: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾. والعبارة موجزة حتى تكاد تكون صرخة إنذار: احذروا ناقة الله، واحفظوا حقها في السقيا، ولا تمتد أيديكم إلى الآية التي جعلها الله بينكم امتحاناً لصدقكم وطاعتكم.

ووصف صالح عليه السلام بأنه ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ في هذا الموضع يحمل كلمته ثقل مصدرها؛ فهو لا يدافع عن مصلحة شخصية، ولا يفوضهم على شيء يخصه، ولا يقيم بينهم زعامة تنافس زعاماتهم، بل يبلغ حداً وضعه الله. وحين قال لهم: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ لم يكن المقصود أن الله سبحانه محتاج إليها أو منتفع بها، تعالى الله عن ذلك، وإنما هي إضافة تشريف وتخصيص؛ كما يقال: بيت الله وعبد الله. إنها ناقة خلقها الله وجعلها آية ظاهرة، ونسبها إليه تشريفاً لها وتعظيماً لحرمتها، حتى يكون الاعتداء عليها اعتداءً على الحد الذي أمرهم الله أن يقفوا عنده.

ولم يكن الامتحان غامضاً ولا مستحيلاً؛ كان عليهم أن يتركوا الناقة تأكل في أرض الله، وأن يصونوا نصيبها المعلوم من الماء، كما بينت مواضع أخرى من القرآن: ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾. لقد وضعت الآية أمامهم تدريباً عملياً على الاعتراف بحقي لا يملكون إلغاءه، وعلى قبول شريك في المورد الذي ظنوا أن قوتهم تجعلهم

أصحاب السلطان المطلق عليه. ومن هنا لم تكن قضية الناقة حيواناً يشرب من ماء القوم فحسب؛ بل كانت سؤالاً عن معنى العبودية: هل يقبلون أن يكون لله أمرٌ فوق رغباتهم، وأن للضعيف حقاً لا تسحقه قوتهم، وأن ما في أيديهم ليس ملكاً مطلقاً يفعلون به ما يشاؤون؟

إن الحدود الصغيرة في ظاهرها قد تكشف أمراضاً كبيرةً في الباطن. قد يُطلب من الإنسان أن يتنازل عن جزءٍ يسير من راحته فيظهر أن الأناية تملكه كله، أو أن يعترف بحق خصمه فينكشف أن تعصبه أعظم من محبته للعدل، أو أن يتوقف عند حدٍّ واحد فتثور في داخله رغبةٌ جامحةٌ في إثبات أنه لا يخضع لأحد. ليست قيمة الاختبار دائماً في حجم الشيء المطلوب، بل في الحقيقة التي يكشفها الطلب. وقد كانت سقيا الناقة في ظاهرها قسمة ماء، لكنها في باطن الامتحان قسمةً بين العبودية والطغيان.

فالطاغية لا يضيق بالحدود لأنها كثيرةٌ فحسب؛ قد يضيق بحدٍّ واحد لأن وجوده وحده يعلن أن إرادته ليست إلهاً. إنه يريد أن يمتلك الحق في الفعل والحق في تعريف الفعل، فيأخذ الشيء ثم يطالب الناس بتسميته عدلاً. ولذلك كان مجرد وجود الناقة أمام ثمود تذكيراً يومياً بأن في الأرض آيةٌ لا تخضع لسلطانهم، وبأن في الماء نصيباً لا يملكون مصادره، وبأن فوق قوتهم أمراً إلهياً لا تقاس مشروعيته برضاهم.

وكان يمكن لهم أن يروا في الناقة رحمةً وآيةً وباباً إلى الإيمان، لكن النفس المدسوسة تقلب طبيعة الأشياء؛ فتحول النعمة إلى استفزاز، والدليل إلى خصم، والحد إلى إهانة. لا تتغير الآية في ذاتها، لكن القلب الذي يستقبلها هو الذي يحدد أثرها فيه؛ فالشمس نفسها تفتح الزهرة وتزيد الطين صلابة، والماء نفسه يحيي الأرض وقد يغرق من لم يحسن التعامل معه، والوحي نفسه يزيد المؤمن إيماناً ويزيد من في قلبه مرضٌ رجساً إلى

رجسه. ليست المشكلة دائماً في غياب الضوء، بل قد تكون في طبيعة العين التي قررت ألا ترى.

إن ناقة الله تمثل في القصة حقاً واضحاً محروساً بالكلمة الإلهية؛ ومن أعظم علامات فساد الأمم أن تصبح الحقوق الواضحة عبئاً عليها. حين يضيق القوي بحق الضعيف، والغني بنصيب الفقير، والحاكم بصوت الناصح، والأكثرية بجرمة الأقلية، فإن ناقة ما تكون واقفةً عند مورد الأمة، لا لأنها تعطل حياتها، بل لأنها تختبر أخلاقها. وليس السؤال: هل تستطيع الجماعة أن تسحق ذلك الحق؟ فقد تستطيع، كما استطاعت ثمود أن تعقر الناقة؛ لكن القدرة على الفعل لا تمنحه المشروعية، والنجاح في إسكات الضحية لا يسكت الحكم في السماء.

ومن لطائف العبارة أن صالحاً عليه السلام حذرهم من الناقة ومن ﴿سُقْيَاهَا﴾ معاً؛ فالاعتداء قد يكون على الوجود نفسه، وقد يكون على الحق الذي يحفظ ذلك الوجود. وربما لم يقتل الظالم إنساناً، لكنه قطع عنه أسباب الحياة؛ لم يسلبه صوته مباشرةً، لكنه حاصره حتى لم يعد لصوته أثر؛ لم ينكر حقه نظرياً، لكنه منع عنه الوسائل التي يستطيع بها الوصول إليه. والقرآن يربي الوعي على ألا ينظر إلى الجرائم في صورتها الأخيرة وحدها، بل إلى المقدمات التي تختنق الحقوق قبل إعلان موتها.

لقد أدى الرسول أمانته كاملةً، ووضع الإنذار في اللحظة التي لا يمكن بعدها ادعاء الجهل. والكلمة النبوية هنا تقف وحدها أمام تيار الطغيان، لكنها ليست ضعيفةً وإن تجاهلها القوم؛ فقوة الكلمة لا تقاس بعدد من يطيعونها في لحظة صدورها، بل بصدقها وبالمصدر الذي جاءت منه وبالمصير الذي ستكشفه الأيام. وقد تبدو صيحة الناصح ضعيفةً وسط ضجيج الجماعة، ثم يصمت الضجيج كله وتبقى صيحته هي التفسير الوحيد للخراب.

وهذه هي وحدة الرسل عبر التاريخ: يقفون عند الحافة التي تندفع إليها أممهم، ويحذرونهم لا طلباً للنصر الشخصي بل رحمةً بهم. إنهم يرون العاقبة قبل أن يراها الناس بنور الوحي، فيُتهمون بالتشاؤم لأنهم لا يشاركون الجماعة نشوتها، ويُرمون بإعاقة التقدم لأنهم يسألون عن الطريق الذي يمضي إليه التقدم، ويُنبذون لأنهم يذكرون المجتمع بأن الإجماع لا يعصم الباطل، وأن الكثرة إذا سارت نحو الهاوية لا تغير الهاوية إلى طريق نجاة.

لكن الطغيان إذا بلغ ذروته لا يكتفي بتجاهل التحذير، بل يسعى إلى إزالة الشاهد الذي يذكره بحدوده. ولذلك جاء الجواب فاجعاً:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَفَرُوهُ﴾.

الفصل السابع

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا: من اغتيال الحقيقة إلى اغتيال آيتها

يجمع التعبير القرآني بين جريمتين في حركةٍ متصلة: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾. كذبوا الرسول أولاً، فعقروا الناقة بعد ذلك؛ وكأن الفعل الخارجي لم يكن إلا ثمرة الفعل الداخلي. قبل أن تمتد اليد إلى الناقة كان القلب قد امتد إلى الحقيقة بالتكذيب، وقبل أن تُجرَح الآية في جسدها كانت قد جُرحت في وعي القوم حين رفضوا دلالتها. فالجرائم الكبيرة تبدأ بتغيير الموقف من المعنى؛ إذ لا يستطيع الإنسان غالباً أن يعتدي على شيءٍ يعتقد حرمة إلا بعد أن يخفض في نفسه مكانة تلك الحرمة، أو يصنع روايةً تبرر الاعتداء عليها.

إن التكذيب يمهّد للعقر؛ لأن الكلمة حين تفقد قدسيّتها في القلب يهون انتهاك ما تحميه. وإذا أراد الطغيان أن يعتدي على حقٍّ، بدأ بتشويه صاحب الحق؛ يصفه بالخطر، أو ينزع عنه الكرامة، أو يشير حوله الشكوك، حتى يبدو الظلم في أعين الجمهور دفاعاً مشروعاً. وهكذا تعمل آلة التندسية على مستوى الجماعة: لا تقول للناس منذ البداية «كونوا ظالمين»، بل تعيد تعريف المظلوم حتى لا يشعروا أنهم يظلمونه.

والفناء في ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ تكشف سرعة الانتقال من التكذيب إلى الفعل؛ لأن الأفكار ليست ساكنة في الرؤوس، بل تبحث عن تجسّد في العالم. الاعتقاد الفاسد يلد موقفاً، والموقف إذا امتلك القوة يلد نظاماً وسلوكاً، وما يردده الناس طويلاً بألسنتهم قد يأتي يومٌ تكتبه أيديهم بالدم. ولذلك لم يكن إصلاح التصورات ترفاً فكرياً؛ فالصورة التي نحلها عن الله والإنسان والحق والضعيف ستحدد في النهاية ما نفعله حين نملك القرار.

قالت الآية: ﴿فَعَفَّوْهَا﴾ فنسبت العقر إلى القوم جميعاً، مع أن الذي باشره رجلٌ وصفته السورة قبل قليل بأنه ﴿أَشَقَّاهَا﴾. وهذه النسبة من أعظم الدروس في المسؤولية الجماعية؛ فقد نفذ الواحد، لكن القوم رضوا أو حرضوا أو تواطؤوا، فصار فعله فعلهم. إن المجتمع لا يبرأ من جريمة خرجت من إرادته العامة ل مجرد أن يداً واحدةً تولت التنفيذ؛ فالقاتل قد يكون فرداً، لكن المصنع الذي أنتجه جماعة، والقرار الذي حركه ثقافة، والصمت الذي حماه موقفاً مشتركاً.

ليس كل صامتٍ شريكاً على درجةٍ واحدة، فالناس تختلف قدرتهم ونياتهم وظروفهم، والله أعلم بما في القلوب وما تبلغه الاستطاعة؛ لكن الصمت الذي ينشأ عن الرضا، أو يجي الجريمة مع القدرة على إنكارها، أو ينتظر نصيبه من ثمرتها، ليس حياً بريئاً. إن الشر العام يحتاج دوائر تحيط به: منفذاً في المركز، ومحرضين حوله، ومبررين أبعد منهم، وصامتين يملأون المساحة التي كان ينبغي أن يخرج منها الاعتراض. وحين تكتمل الدوائر يبدو المجرم قوياً، لا بقوته الذاتية وحدها، بل بالفراغ الأخلاقي الذي صنعه الآخرون من حوله.

لقد عقروا الناقة التي لم تنازعهم سلطاناً، ولم تحمل سلاحاً، ولم تطلب غير النصيب الذي جعله الله لها. وكان عجزها عن الدفاع عن نفسها جزءاً من الامتحان؛ لأن أخلاق الإنسان لا تُعرف فقط في تعامله مع القادر الذي يخشى انتقامه، بل مع الضعيف الذي يستطيع ظلمه دون ثمنٍ عاجل. من عدل لأنه يخاف العقوبة قد يكون منضبطاً لا عادلاً، أما العدل الذي يكشف التقوى فهو أن تحفظ الحق حين يمكنك سحقه، وأن تمتنع عن الظلم في الخفاء، وأن ترى عين الله حين تغيب عيون الناس.

والناقة في ضعفها الظاهر كانت أقوى من القوم جميعاً؛ لأن وراء حرمتها أمر الله، بينما قوتهم المادية كانت خواءً حين انفصلت عن رضاه. وهذا من انقلاب الموازين

الذي يتكرر في الوحي: قد يقف الضعيف أعزل، لكنه يحمل حقاً أبقى من سلاح خصمه، وقد يمسك الطاغية بكل أسباب البطش، لكنه يكون قد أمسك في الحقيقة بأسباب هلاكه. القوة لا تُقاس بما تستطيع كسره في اللحظة، بل بما يبقى لك بعد العاقبة.

وكان العقر لحظة نشوة قصيرة؛ ظنوا فيها أنهم تخلصوا من الآفة التي ضيقت عليهم، وأن الماء عاد خالصاً لهم، وأن صوت صالح عليه السلام قد فقد برهانه المربّي. غير أن إزالة الآفة لا تزيل الحقيقة التي دلت عليها؛ وقتل الشاهد لا يبطل الشهادة، وإسكات الناصح لا يحو العاقبة التي حذر منها. قد يستطيع الإنسان أن يحطم المرآة لأنها كشفت قبح وجهه، لكنه لا يصير أجمل بالحطام.

ثم تأتي اللفظة التي تكشف المنبع الباطني للجريمة: ﴿يَذَنِّبُهُمْ﴾. لم يهلكوا بسبب الناقاة في ذاتها، ولم تكن العقوبة فعلاً بلا علة؛ بل كان ذنبهم هو الذي استدعى المصير. والذنب هنا لا يقتصر على حركة العقر وحدها، بل يحمل وراءه تاريخ التكذيب والطغيان والرضا الجماعي والجسارة على حد الله. فالعقوبات الكبرى لا تُقرأ منفصلةً عن مسارٍ طويلٍ من الفساد؛ إنها اللحظة التي بلغ فيها المرض منتهاه ولم يعد موضع العلاج الذي اختاروه قائماً.

﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ يَذَنِّبُهُمْ﴾.

والدمدمة لفظَةٌ ثَقِيلَةٌ متراكبة الجرس، توحى بإطباق العذاب وشموله وشدته؛ كأن الصوت نفسه يحمل رهبة الفعل، فلا يترك في السمع منفذاً للخفة. دمدم عليهم ربهم؛ أي أطبق عليهم العذاب واستأصلهم به، فلم تعد الجبال التي نحتوها حصوناً، ولا القوة التي اغتروا بها نجاةً، ولا الجماعة التي احتسب بعضها ببعض قادرةً على دفع أمر الله.

لكن السورة لا تقول: دمدم عليهم ربهم وحسب؛ بل تقيدها بالعدل: ﴿يَذَنِّبُهُمْ﴾. هذه الكلمة القصيرة تمنع كل وهم في نسبة الظلم إلى الله؛ فلم يهلكهم بلا جرم، ولم يأخذهم

قبل قيام الحجّة، ولم يسلبهم فرصة الاختيار، بل أرسل إليهم رسوله، وأظهر لهم آيته، وحدد لهم حرمتها، وحذرهم من عقرها، ثم اختاروا التكذيب والطغيان. إن الجزء هنا ليس نزوة قوة، تعالى الله عن ذلك، بل حكم العدل على أمة نقضت ما أُقيم عليها من حجّة.

والله سبحانه غنيٌّ عن طاعة الخلق، لا تزيد في ملكه طاعتهم ولا تنقصه معصيتهم، لكن أوامره رحمةٌ بهم وحدوده حراسةٌ لإنسانيتهم؛ فإذا تمردوا لم يضرّوا الله، وإنما هدموا البنية التي تحفظ وجودهم الأخلاقي والاجتماعي. وثمود حين عقرت الناقة لم تنقص من ملك الله شيئاً، لكنها عقرت في نفسها آخر ما كان يصلها بالنجاة.

ثم تقول الآية: ﴿فَسَوَّاهَا﴾؛ فسوى الدمدمة عليهم، وعمهم بها، أو سوى أرضهم وأهلكهم على السواء؛ وفي كل معنى يلوح شمول العاقبة وتماها. وهنا تتردد كلمة التسوية بين أول السورة وآخرها على نحو مهيّب: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾، ثم ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾. نفسٌ سَوَّاهَا الله للحياة والتكليف، وأمةٌ أفست ما سَوَّاه الله في داخلها، حتى انتهت إلى تسويةٍ أخرى تحت العذاب.

ما أبعد المسافة بين التسويتين: الأولى عطاءٌ وإعدادٌ وتشريف، والثانية جزاءٌ وإطباقٌ وإنهاء. في الأولى فُتح أمام الإنسان طريقا الفجور والتقوى، وفي الثانية ظهرت نتيجة الطريق الذي اختاروه. وهكذا لا ينتقل الإنسان من النعمة إلى الهلاك فجأة؛ بينهما اختياراتٌ كثيرة، وإنذاراتٌ متتابعة، وحدودٌ كان يمكنه الوقوف عندها، وتوبةٌ كان يستطيع أن يعود بها. لكن من يدس نفسه طويلاً قد يصل إلى يومٍ يرى فيه طريق الرجوع ولا يريده، لا لأن الباب مغلق، بل لأن الطغيان صار أحب إليه من النجاة.

وبعد أن تسوى الديار على أهلها، ينكشف وهم القوة الذي ملأ صدورهم. لقد نحتوا الجبال ظناً أن الحجر يحيمهم، لكن الذي بنى السماء وطحا الأرض لا تعجزه حصونهم؛

واحتكروا الماء وظنوا أنهم يملكون أسباب الحياة، فإذا أنزل الماء قادرٌ على أن يسلبهم الحياة وهم في قلب مواردهم. والطغاة دائماً يخطئون حين يقيسون قدرة الله بمقاييس قدرتهم؛ لأنهم لا يرون إلا أسباب الأرض، وينسون رب الأسباب الذي جعل للجبال أجلاً وللأمم أجلاً.

ثم تختتم السورة بالقمة الأخيرة من جلالها:

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

الفصل الثامن

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا: عدلٌ لا تهدده قوة ولا تراجعهُ سلطة

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾

تنتهي السورة بهذه الآية القصيرة المجلجلة، بعد أن عرضت دمدمة العذاب وتسويته على ثمود: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾. والله سبحانه لا يخشى عاقبة ما أنزله بهم، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولا توجد قوة فوق قوته تحاسبه، ولا سلطة وراء حكمه تراجعهُ، ولا يخاف ثأراً من أمة أهلكها، ولا نقصاً يصيبه، ولا خطأ يكشفه بعد الحكم؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. إن حكمه صادرٌ عن علمٍ محيط، وقدرة مطلقة، وعدلٍ لا تشويه شائبة، فلا يعقبه ندمٌ ولا مراجعةٌ ناشئة عن جهل، ولا خوفٌ من نتائج لم تكن معلومة.

وهذه الخاتمة لا يراد بها تصوير القدرة مجردة عن الحكمة، فالسورة نفسها صرحت قبلها بسبب العقوبة: ﴿بَذَنِيهِمْ﴾. إن الذي لا يخاف عقباها هو الرب الذي سوى النفس، وألهمها فجورها وتقواها، وأرسل الرسول، وأقام الآية، وحدد الحرمة، وأنذر من العدوان؛ فلما اختار القوم الطغيان بعد البيان، وقع عليهم حكمٌ لا يظلم مثقال ذرة. القوة الإلهية هنا ليست بطشاً بلا ميزان، بل قدرة العدل على إنفاذ حكمه دون أن يمنعه مانع.

ويختلف ذلك اختلافاً مطلقاً عن جبروت البشر؛ فالطاغية حين يعاقب يخاف عاقبة عقوبته، وإن تظاهر بالأمان. يخاف ثورة المظلوم، وانكشاف الوثيقة، وانقلاب الجند، وتغير الموازين، وذاكرة التاريخ، وكلمة تخرج من بين الركام فتسلب روايته سلطانها. ولهذا يحاصر الشهود، ويزور الأخبار، ويبني لنفسه تماثيل من المديح؛ لأنه يعرف في

أعماقه أن حكمه ليس قائماً بذاته، وأن اليد التي يبطش بها قد ترتجف غداً أمام يد أقوى منها.

أما الله سبحانه فلا يظلم حتى يحتاج إلى إخفاء أثر، ولا يخطئ حتى يخشى انكشاف خطئه، ولا ينازعه أحدٌ في ملكه، ولا يفوته شيءٌ في علمه، وإذا أخذ الظالم فإن أخذه ليس رد فعلٍ مضطرباً، بل حكم الحق في الزمن الذي قدره. قد يمهل، لكن الإمهال ليس عجزاً؛ وقد يترك للطاغية حبلاً طويلاً، لكن طول الحبل لا يلغي نهايته؛ وقد يرى المؤمن الباطل منتفخاً فيحسب أن السماء قد تركت الأرض، بينما يكون الاستدراج نفسه فصلاً من فصول الحكم الذي لا يرى الناس تمامه بعد.

إن الإنسان يخاف العواقب لأنه محدود العلم؛ يتخذ القرار ثم يتكشف له ما لم يحسبه، وينطق الكلمة ثم يندم عليها، ويعالج خللاً فينشئ خللاً آخر، وقد يريد الخير فيأتي بالشر من حيث لا يدري. أما علم الله فليس فيه مستقبلٌ مجهول، ولا حادثةٌ تفاجئه، ولا نتيجةٌ تخرج عن تقديره. وما يقع من قضائه قائمٌ على علمه الذي أحاط بما كان وما يكون، وعلى حكمته التي قد تخفى عنا بعض وجوهها دون أن يلحقها نقص.

وهنا يحتاج التدبر إلى خشوع يحفظ للعبد مقامه؛ فلسنا حكماً على أفعال الله، ولا نزن حكمته بأفقنا الضيق، ولا نجعل عجز عقولنا عن إدراك جميع الأسرار دليلاً على غياب الحكمة. العقل يهتدي بآيات الله ويعرف بها عدله وكمال، لكنه لا يحيط بعلمه؛ ومثلها لا تستطيع قطرة أن تحتوي البحر، لا يستطيع المخلوق المحدود أن يحيط بجميع وجوه تدبير الخالق. وليس الإيمان تعطيلاً للعقل، بل معرفةٌ بقدره وحدوده بعد أن يقوده النظر الصادق إلى الثقة بربه.

وترد هذه الآية على الغرور الذي قد يصيب الأمم حين ترى قوتها عظيمةً في مقاييس عصرها. لقد كانت ثمود قادرةً على نحت الجبال، وعلى استخراج المساكن من

صلايتها، وربما ظن أبنائها أن الأمة التي أخضعت الحجر لا يستطيع أحد إخضاعها؛ لكنهم لم يفهموا أن القدرة التي منحتم العقل واليد والحجر قدرةً على أن تجعل ما يفتخرون به شاهداً على عجزهم. ما أسرع ما تتحول منجزات الحضارة إلى آثار صامتة حين يرحل الإنسان الذي صنعها، وما أشد المفارقة حين تبقى البيوت المنحوتة ويغيب ساكنوها؛ كأن الحجر الذي ظنوا أنه يحفظ وجودهم صار كتاباً مفتوحاً يروي فناءهم.

ولا تدم السورة القوة ولا البناء ولا عمارة الأرض؛ فالفساد ليس في أن يقدر الإنسان، بل في أن يتوهم أن قدرته تلغي عبوديته. الحضارة التي تزي نفس الإنسان تجعل العلم باباً إلى التواضع، والعمران صورةً للمسؤولية، والقوة حارسةً للحق؛ أما الحضارة التي تفسد النفس فقد تبني خارجها بقدر ما تهدم داخلها، وقد تبلغ القمم التقنية بينما تهبط إلى القاع الأخلاقي، فتملك وسائل لا تملك حكمة استخدامها. وكل تقدم يوسع قدرة الإنسان دون أن يزي ضميره يوسع مساحة الخطر؛ لأن اليد الأقوى إذا قادتها نفسٌ أفر لم تصنع عالماً أكثر أماناً، بل صنعت للظلم أدواتٍ أشد فتكاً.

ولهذا ترتبط نهاية السورة ببدايتها ارتباطاً عجيباً. في المطلع يقسم الله بالشمس، مصدر الضياء الذي يملأ الوجود؛ وفي الختام يخبر عن أمةٍ أطفأت ضياءها الداخلي حتى لم تعد ترى العاقبة. بين الشمس والدمدمة قصة نفس، وبين الضحى والخبية مسار قرار، وبين تسوية النفس وتسوية الديار تاريخٌ طويلٌ من التزكية التي تُركت والتدسية التي نمت. لم يهلكوا لأن الشمس غابت عن سماءهم، بل لأنهم غطوا الشمس التي في ضمائرهم، ولم يعاقبوا لأن طريق التقوى لم يُعرض عليهم، بل لأنهم عرفوا الحد ثم جعلوا تجاوزه إعلاناً لطغيانهم.

وهكذا تجعل الآية الأخيرة القارئ واقفاً أمام جلال الحكم الإلهي، لكنها لا تتركه يراقب ثمود من بعيد؛ فثمود ليست أثراً من الماضي فحسب، بل احتمالاً أخلاقياً يتكرر

كلها كذبت جماعةٌ بسبب طغواها، وكلها انبعث أشقاها لتنفيذ ما يريده فسادها، وكلها امتدت اليد إلى حقٍ واضح بعد قيام الحجّة، وكلها ظن المجتمع أن قوته ستمنع عنه عاقبة الظلم. قد تختلف الناقّة، وتغير أدوات العقر، وتبدل أسماء الطغاة، لكن القانون لا يتبدل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

حين تكون النفس هي القضية التي يشهد عليها الكون

تبدأ سورة الشمس بالكون وتنتهي بالتاريخ، وبين الكون والتاريخ تقف النفس؛ كأنها الجسر الذي يعبر عليه الإنسان من النعمة إلى المصير. فالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض آياتٌ في نظام الوجود، وثمود آيةٌ في عاقبة الخروج على النظام الأخلاقي، والنفس هي الموضع الذي يتقرر فيه أي الطريقين سيختاره الإنسان. وما التاريخ في جوهره إلا ما تفعله النفوس حين تتحول نوازعها الخفية إلى قراراتٍ عامة، وما الحضارة إلا باطن الإنسان وقد لبس الحجر والنظام والمؤسسة، وما الانهيار إلا عطب الضمير حين كبر حتى صار عطب أمة.

لقد أقسم الله بالشمس وضحاها؛ لأن النور أصلٌ في المشهد، ثم أقسم بالقمر حين يتلوها؛ لأن تلقي النور أمانة، وبالنهار حين يجليها؛ لأن الحقيقة قابلةٌ للظهور، وبالليل حين يغشاها؛ لأن الاحتجاب لا يعني انطفاء الأصل، وبالسما وما بناها؛ لأن الوجود بناءٌ لا فوضى، وبالأرض وما طحها؛ لأن الحياة مهيأةٌ لامتحان الإنسان. ثم جاء القسم بالنفس وما سواها ليقول لنا إن هذا الكائن الذي يمشي بين السماء والأرض لم يُخلق مهملاً، بل صُنعت في داخله بنيةٌ قادرةٌ على حمل الأمانة.

ولم يقل سبحانه إن النفس مجبولةٌ على التقوى وحدها حتى تنتفي المجاهدة، ولا إنها محكومةٌ بالفجور حتى تنتفي المسؤولية؛ بل قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، فأبان الطريقين ووضع الإنسان في موضع الاختيار. إن في النفس قابليةً للصعود وقابليةً للهبوط، وحضور إحداهما لا يحو الأخرى ما دام باب التكليف مفتوحاً. وقد يخفق الصالح ثم يتوب فيصبح إخفاقه موضع معرفةٍ بنفسه، وقد يعمل الفاجر خيراً عارضاً

دون أن يتغير اتجاهه؛ فالعبرة ليست بلحظةٍ معزولة، بل بالمسار الذي يغذيه الإنسان، وبالوجهة التي يعود إليها كلها انحراف.

ثم أعلنت السورة قانونها المركزي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾. الفلاح ليس هديةً تُعطى للنفس وهي مستلقيةٌ في كسلها، بل ثمرة التزكية: تطهيرٌ ونماء، تخليصٌ من الرذيلة وإحياءٌ للفضيلة، محاسبةٌ لا تحطم الإنسان بل تنقذه من كذبه على نفسه، ومجاهدةٌ لا تقتل رغباته بل تضعها في موضعها الصحيح. أن تزكي نفسك يعني ألا تسمح للجرح أن يصير ظلمًا، ولا للحرمان أن يتحول إلى حسد، ولا للقوة أن تنقلب استعلاءً، ولا للمعرفة أن تصبح كبرًا، ولا للعبادة أن تُختطف لمصلحة الرياء.

والتزكية ليست مشروع يومٍ واحد، بل يقظة العمر كله؛ لأن النفس تتغير، والفتن تثلون، والمرض الذي خرج من بابٍ قد يعود من نافذة. ربما يجاهد الإنسان حب الظهور في صباه، ثم يتلى بحب السلطة في نضجه، ثم يلبس عليه العجب ثوب الحكمة في شيخوخته. ولا يبلغ المؤمن مقامًا يستغني فيه عن سؤال الله الثبات؛ إذ ليس الخوف من النفس سوء ظنٍ بخلق الله، بل معرفةٌ بضعف العبد وافتقاره إلى ربه.

وفي المقابل قالت السورة: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. إن الخيبة لا تبدأ يوم تقع العقوبة، بل يوم يقبل الإنسان أن يدفن جزءًا من بصيرته ليحصل على مصلحةٍ عاجلة. هو خائبٌ منذ أن صار محتاجًا إلى الكذب ليحمي صورته، وإلى ظلم الآخرين لينبي مقامه، وإلى تصفيق الجمهور ليصدق أنه موجود. وقد تأخر لحظة انكشاف الخيبة، فيظن الناس أن التدسية طريقٌ ناجح، لكن تأخر ظهور النتيجة لا يغير طبيعتها؛ فالبذرة المسمومة تظل مسمومةً ولو تأخر موسم الحصاد.

وتكشف قصة ثمود كيف يخرج فساد النفس من خفائه. بدأ الأمر بطغيانٍ حملهم على التكذيب: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾. لم يكن العقل وحده هو الذي نظر في الدليل، بل

دخلت القوة والمصلحة والاستبصار إلى ساحة النظر، فأصدر الهوى حكمه قبل أن تنتهي المحاكمة. ثم انبعث أشقاها؛ لأن الأمة حين يفسد ميزانها تبحث عن يدٍ تجسد فسادها. يظهر المجرم في الواجهة، لكن وراءه عيوناً تنتظر، وألسنةً تحرض، وقلوباً ترضى، ومصالح تتغذى.

ثم جاءت كلمة صالح عليه السلام: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾، لتقيم الحد بوضوحه الأخير. كان في وسعهم التراجع؛ فالباب لم يُغلق قبل الجريمة، والحجة لم تُحجب، والإنذار لم يكن ملتبساً. لكنهم كذبوه فعقروها، فنسب القرآن الفعل إليهم جميعاً، ليعلمنا أن الرضا العام قد يجعل جريمة اليد الواحدة جريمة أمة. وقد لا يحمل كل فردِ الأداة، لكن المجتمع يحمل الرواية التي تبرر استخدامها.

وفي الناقه درسٌ يتجاوز زمنها: إن الحقوق لا تستمد حرمتها من قدرة أصحابها على حمايتها. قد يكون الضعيف عاجزاً عن رد الظلم، لكن عجزه لا يحول ماله إلى مباح، ولا كرامته إلى فائضٍ يمكن إهداره، ولا صوته إلى ضوضاءٍ يجوز خنقها. بل إن الضعف يزيد الامتحان وضوحاً؛ لأن الإنسان أمام القوي قد يتظاهر بالعدل خوفاً، أما أمام من لا يملك الرد فتظهر حقيقة نفسه. هناك يعرف هل يقف عند الحد لأن الله أمره، أم لأنه يخشى قوةً أخرى.

ثم دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها. لم تنفعهم جبالهم، لأن الذي بناها أقوى؛ ولم تنفعهم كثرتهم، لأن اجتماع الضعفاء لا يصنع قوةً أمام الله؛ ولم ينفعهم تواطؤهم على تغيير اسم الجريمة، لأن الحقائق لا تتغير بالتصويت عليها. قد تسمي أمةً ظلمها ضرورةً وطنية، أو تسمي عدوانها حمايةً، أو تسمي عقرها إصلاحاً، لكن الاسم لا يغير ماهية الفعل في ميزان الله.

وتأتي الخاتمة: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾، لتسقط آخر أوهام الطغيان. فالظالم يتصرف عادةً كما لو كان الله طرفاً محدوداً في معادلة القوة، أو كما لو كانت كثرة أتباعه قادرةً على تعديل الحكم الأخلاقي. لكن الله لا يخاف عاقبة حكمه، ولا يعجزه من احتى بالجبال، ولا يضره من كفر، ولا يفوته من هرب. وهو مع ذلك لا يظلم؛ لأن الآية ربطت الدمدمة بذنبيهم، فاجتمع تمام القدرة مع تمام العدل، وسقط التشبيه بين سلطان الله وسلطان الطغاة.

إن سورة الشمس تطالبنا بألا نشتغل طويلاً بتشخيص ثمود خارجنا قبل البحث عن بذور ثمود في الداخل. أين هو الطغيان الصغير الذي يجعلني أرفض الحق لأن قائله لا يعجبني؟ أين هو الأشتى الذي ينادي في نفسي كلما أرعجني حد من حدود الله؟ ما الناقة التي أراها تقف بيني وبين رغبةٍ محرمة فأحاول عقر معناها بالتأويل؟ وما السقيا التي أضيق بمنحها لصاحب حق لأنني أريد المورد كله لنفسي؟ هذه الأسئلة هي التي تنقل القصة من كتاب التاريخ إلى كتاب القلب.

وقد يكون عقر الناقة في حياة الفرد قتلاً لصوت الضمير كلما نطق، أو اعتداءً على حق قريب لا يقدر على المقاومة، أو تشويهاً لناصح بدل مواجهة نصيحته، أو تضحيةً بإنسان بريء لحماية صورة الجماعة. وكلما فعل المرء ذلك كان يدس نفسه، حتى وإن حافظ أمام الناس على هيئة الصالحين. فالتقوى ليست رايةً يرفعها الإنسان فوق أخطائه، بل نورٌ يسمح له أن يراها ويعترف بها ويصلحها.

والسورة، مع شدة وعيدها، ليست خطاباً يائساً؛ لأن قانون الفلاح سبق قصة الهلاك، وطريق التزكية ذكر قبل طريق التدسية. إنها لا تقول للإنسان إن نفسه قبرٌ محتوم، بل تخبره أن بيده - بتوفيق الله - أن يجعلها أرضاً طيبةً تنمو فيها التقوى. وما دام يشعر بالخطأ، ويقدر على الاعتراف، ويسمع صوت الآية، فإن باب النور لم يُغلق. قد

تكون فوق النفس طبقاتٌ من الغبار، لكن الغبار لا يصير جزءاً من المرآة، ويمكن لدمعة توبة صادقة أن تبدأ رحلة الجلاء.

فإذا طلعت الشمس في الصباح بعد قراءة هذه السورة، لم تعد مجرد جرم يتكرر ظهوره؛ إنها تذكيرٌ بأن النور لا يزال ممكناً، وأن الضحى يمكن أن ينبسط في النفس كما ينبسط في الآفاق. وإذا جاء الليل، تذكر المؤمن أن غشيانته للشمس لا يطفئها، وأن لحظات ضعفه لا ينبغي أن تقنعه بأن النور مات فيه؛ فربه الذي يأتي بالنهار بعد الليل قادرٌ أن يخرج قلبه من ظلمته، إذا صدق في العودة إليه.

وإذا رفع بصره إلى السماء وما بناها، ثم نظر إلى الأرض وما طحاها، عرف أن الكون الذي ينتظم من حوله يدعوه إلى أن يعيد ميزانه الداخلي. لا يليق بكائنٌ يعيش في هذا الإحكام أن يجعل روحه فوضى، ولا بمن يرى الشمس تؤدي أمانتها أن يخون أمانته، ولا بمن يسير فوق أرض الله أن يطغى على عباد الله. إن العبودية ليست نشازاً في الكون، بل هي النعمة التي يسبح بها كل شيء؛ وإنما يشقى الإنسان حين يصير على أن يكون الصوت المنفلت من هذا التسبيح.

وفي نهاية الرحلة لا يبقى من سورة الشمس في القلب وصفٌ للشمس ولا خبرٌ عن ثمود وحدهما، بل يبقى سؤالٌ واحدٌ يتجدد مع كل اختيار: ماذا أفعل بنفسي التي سواها الله؟ هل أرفع عنها تراب الهوى لتتسع لنور التقوى، أم أدفنها تحت الأعذار حتى أصير غريباً عنها؟ فهذه النفس هي الوديعة التي سنعود بها إلى الله، وكل ما نجعله خارجها سيبقى خارج القبر، أما هي فتمضي معنا شاهدةً بما زكينا وما دسينا.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها؛ ولا تجعل نور الفطرة فينا مطموراً، ولا صوت الحق مخنوقاً، ولا نعمك طريقاً إلى الطغيان،

واجعلنا ممن أفلحوا بتزكية نفوسهم، وعرفوا حدودك فوقفوا عندها، ورأوا آياتك فازدادوا بها إيماناً، وسمعوا إنذارك فعادوا قبل أن تصبح العاقبة خبرهم الأخير.

وبهذا، بحمد الله وفضله، أتممت الرحلة التدرية والتأملية في جميع آيات سورة الشمس، من الآية الأولى إلى الآية الخامسة عشرة، واكتمل بناء الكتاب بمقدمته المنهجية وفصوله وخاتمته الفكرية الجامعة.